

مختصر

تفسير سورة الفاتحة

اختصره من تفسير الإمام ابن كثير:

محمد بن سليمان المهنا



مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فهذا تفسير سورة الفاتحة، اختصرتُه من «تفسير الإمام ابن كثير» فجاء في نحوِ ٤٠٪ من الأصل، مع اشتماله على عامَّة ما في الأصل من المباحث والفوائد.

أدعو إلى الاستفادة منه، فهو مناسبٌ للقراءة الفرديَّة والجماعيَّة، كما أدعو إلى نشره عبر وسائل النشر المُختلفة، وأسأل الله الكريم أن ينفع به ويُبارك فيه.

محمَّد بن سليمان المهنَّا



سورة الفاتحة

* **يُقال لها**: الفاتحة؛ أي: فاتحةُ الكتابِ خَطّـًا، وبها تُفتَتَحُ القراءةُ في الصلاة.

* **ويُقال لها أيضـًا**: أمُّ الكتاب، عند جمهور العلماء.

* **ويُقال لها**: السَّبْع المثاني والقرآن العظيم.

* **ويُقال لها**: الحَمْد.

* **ويُقال لها**: الصلاة، لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربِّه: «قَسمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حَمِدني عبدي..» الحديث[1]؛ فسُمّيتْ الفاتحة صلاةً؛ لأنها شرطٌ فيها.

* **ويُقال لها**: الشفاء.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

* **ويُقال لها:** الرُّقْيَة لحديث أبي سعيد في «الصحيح» حين رَقَى بها الرجلَ السليم، فقال له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وما يدريك أنها رقية؟»**(١).

* **وروى الشعبي عن ابن عباس أنه سمَّاها:** أساس القرآن.

* **وسمَّاها سفيان بن عيينة:** الواقية.

* **وسمَّاها يحيى بن أبي كثير:** الكافية، لأنها تكفي عمَّا عداها، ولا يكفي ما سواها عنها.

* **ويُقال لها:** سورة الصلاة، والكنز؛ ذكرهما الزمخشري في كشَّافه.

وهي مكِّية؛ وقيل: مدنية؛ ويقال: نزلت مرَّتين؛ مرةً بمكة، ومرةً بالمدينة. والأول أشبه، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾(٢) والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٦) ومسلم (٢٢٠١).

(٢) [سورة الحجر: آية ٨٧].

وهي سبعُ آياتٍ بلا خلاف، وإنما اختلفوا في البسملة، هل هي آية مستقلَّة من أوَّلها كما هو المشهور عن جمهور قُرَّاء الكوفة، وقول جماعة من الصحابة والتابعين، وخَلْقٌ من الخَلَف، أو بعض آية، أو لا تُعَدُّ من أوَّلها بالكُلِّيَّة، كما هو قول أهل المدينة من القُرَّاء والفُقهاء؟ على ثلاثة أقوال.

* **قالوا:** وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفًا.

* **قال البخاري في أول «كتاب التفسير»:** وسُمِّيت أمَّ الكتاب؛ لأنه يُبْدأ بكتابتها في المصاحف، ويُبْدأ بقراءتها في الصلاة.

* **وقيل:** إنما سُمِّيت بذلك لرجوع معاني القرآن كُلّه إلى ما تضمّنته.

قال ابن جرير: والعرب تسمِّي كل جامع أمراً أو مقدَّم لأمر، إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمامٌ جامع: «أُمّـًا»

فتقول للجِلْدة التي تجمع الدماغ: «أُمَّ الرأس» ويُسمُّون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها «أُمًّا» واستشهد بقول ذي الرمة:

على رأسه أمٌّ لنا نقتدي بها
جماعُ أمورٍ ليس نعصي لها أمرا

يعني: الرمح.

قال: وسُمِّيتْ مكَّة أمَّ القُرى؛ لتقدُّمها أمامَ جميعِها، وجمْعِها ما سواها. وقيل: لأن الأرض دُحِيَتْ منها.

ويقال لها أيضًا: الفاتحة؛ لأنها تُفْتَتَح بها القراءة، وافتتحتْ الصحابةُ بها كتابةَ المصحف الإمام، وصحَّ تسميتها بالسبع المثاني؛ قالوا: لأنها تُثَنَّى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعةٍ، وإن كان للمثاني معنىً آخرُ غيرُ هذا، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه قال في أمِّ القرآن: «هي أُمُّ القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم»[(١)].

وروى البيهقيُّ عن عليّ، وابن عباس، وأبي هريرة؛ أنهم فسَّروا قوله تعالى: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾[(٢)] بالفاتحة، وأن البسملة هي الآية السابعة منها.

***

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٨) ورواه البخاري بلفظ قريب من هذا اللفظ كما سيأتي.

(٢) [سورة الحجر: آية ٨٧].

ذِكْرُ ما ورد في فضل الفاتحة

عن أبي سعيد بن المُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أُصلِّي، فدعاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم أُجِبْه حتى صلَّيت؛ قال: وأتيتُه فقال: «ما منعك أن تأتيني»؟ قال: قلت: يا رسول الله؛ إني كنتُ أُصلِّي. قال: «ألم يقل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]» ثم قال: «لأعلمنَّك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله؛ إنك قلت: لأعلمنَّك أعظم سورة في القرآن. قال: «نعم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيتُه»[3] رواه البخاري.

---

(١) [سورة الأنفال: آية ٢٤].
(٢) [سورة الفاتحة: آية ٢].
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٤).

واستدلُّوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضلِ بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكيُّ عن كثير من العلماء؛ منهم إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربي، وابن الحصار من المالكية.

وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك؛ لأن الجميع كلام الله، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضَّل عليه، وإن كان الجميع فاضلاً. نقله القرطبي عن الأشعري، وأبي بكر الباقلاني، وأبي حاتم ابن حبان البُستي، ويحيى بن يحيى، وروايةً عن الإمام مالك أيضـًا.

حديثٌ آخر:

عن أبي سعيد الخدري؛ قال: كُنَّا في مسيرٍ لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيِّد الحيِّ سَليْمٌ، وإن نَفَرَنا غُيَّبٌ، فهل منكم راق؟ فقام معها رجلٌ ما كنا نأْبِنُهُ برقية،

فرقاه فبرأ؛ فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبنًا؛ فلمَّا رجع قلنا له: أكنتَ تُحسِنُ رقية؟ قال: لا ما رقيتُ إلا بأُمِّ الكتاب. قلنا: لا تُحْدِثوا شيئًا حتى نأتي رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فلمَّا قدِمنا إلى المدينة ذكرناه للنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «وما كان يُدْريه أنها رقية؟ اقسموا واضربوا لي بسهم»[1] رواه البخاري ومسلم.

سَلِيْم؛ يعني: لَدِيْغ؛ يُسَمُّونه بذلك تفاؤلاً.

حديثٌ آخر:

روى مسلم[2] في صحيحه والنسائي في سننه، عن ابن عباس؛ قال: بينا رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعنده جبرائيل إذ سَمِعَ نقيضًا فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: «هذا باب قد فُتِح من السماء ما فُتِح قط. قال: فنزل منه مَلَك، فأتى

(١) أخرجه البخاري ومسلم كما مرَّ في الحاشية ص٤.

(٢) برقم (٨٠٦).

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتَهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفًا منها إلا أوتيته». وهذا لفظ النسائي، ولمسلم نحوه.

حديثٌ آخر:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حَمِدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجّدني عبدي.فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل» رواه مسلم[1].

(١) سبق تخريجه ص٣.

ثم الكلام على ما يتعلَّق بهذا الحديث ممَّا يختصُّ بالفاتحة من وجوه:

أحدها: أنه قد أُطلِق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾[1] أي: بقراءتك، كما جاء مصرَّحًا به في الصحيح عن ابن عباس. وهكذا قال في هذا الحديث: «قسمت الصلاة بين وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل» فدلَّ على عظمة القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها إذ أُطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها؛ وهو القراءة، فدلَّ هذا على أنه لا بدَّ من القراءة في الصلاة، وهو اتِّفاقٌ من العلماء، ولكن اختلفوا في مسألةٍ نذكرها في:

(١) [سورة الإسراء: آية ١١٠].

الوجه الثاني: هل يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب أم تجزئ هي وغيرها؟ على قولين مشهورين؛ فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم؛ أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه في الصلاة. واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[1] وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة المسيء في صلاته، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «إذا قمتَ إلى الصلاة فكبِّر، ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن»[2] قالوا: فأمَرَه بقراءة ما تيسَّر، ولم يُعيِّن له الفاتحة ولا غيرها.

والقول الثاني: أنه تتعيَّن قراءة الفاتحة في الصلاة، ولا تُجزئ الصلاة بدونها؛ وهو قول بقيَّة الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأصحابهم، وجمهور العلماء.

(١) [سورة المزمل: آية ٢٠].
(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٢٣٧) ومسلم (٣٩٧/ ٤٥).

واحتجُّوا على ذلك بقول النبي صلوات الله وسلامه عليه: «من صلَّى صلاةً لم يقرأ فيها بأمِّ القرآن فهي خداج»[1] والخداج: هو الناقص.

واحتجُّوا أيضًا بما ثبت في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[2] والأحاديث في هذا الباب كثيرة، ووجه المناظرة ههنا يطول ذكره. وقد أشرنا إلى مأخذهم في ذلك رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها في كل ركعةٍ.

وقال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات.

وقال الحسن، وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها في

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥/ ٣٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٦) ومسلم (٣٩٤).

ركعة واحدة من الصلاة أخذاً بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[1] وموضع تحرير هذا كلِّه في «كتاب الأحكام الكبير» والله أعلم.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

* **أحدها:** أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه، لعموم الأحاديث المتقدِّمة.

* **والثاني:** لا تجب على المأموم قراءة بالكليَّة لا الفاتحة ولا غيرها، لا في الصلاة الجهرية ولا في الصلاة السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»[2] ولكنَّ إسناده ضعيف.

(١) انظر التخريج السابق.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٣٩).

* **والقول الثالث**: أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم، ولا يجب ذلك في الجهرية، لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما جُعِلَ الإمام ليؤتمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا؛ وإذا قرأ فأنصتوا..»[1] وذكر بقية الحديث.

وهكذا رواة بقية أهل السنن: أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا» وقد صحَّحه مسلم بن الحجَّاج أيضًا، فدلَّ هذان الحديثان على صحَّة هذا القول؛ وهو قولٌ قديمٌ للشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ وروايةٌ عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.

والغرض من ذِكْر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (٤٠٤).

الكلام على تفسير أحكام الاستعاذة

قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾(٣).

---

(١) [سورة الأعراف: الآيات -١٩٩ ٢٠٠]

(٢) [سورة المؤمنون: الآيات ٩٦-٩٨]

(٣) [سورة فصلت: الآيات ٣٤-٣٦].

فهذه ثلاث آيات ليس لهنَّ رابعة في معناها؛ وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرُدَّه عنه طبعه الطيِّب الأصل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعةً ولا إحسانًا، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾[2] وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾[3].

وقد أقسمَ للوالد آدمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنَّه له لمِنَ الناصحين وكَذَب، فكيف معاملته لنا؟ وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ

(١) [سورة الأعراف: آية ٢٧].
(٢) [سورة فاطر: آية ٦].
(٣) [سورة الكهف: آية ٥٠].

﴿أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾[(٢)].

فقالت طائفة من القُرَّاء وغيرهم: يتعوَّذ بعد القراءة، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾[(٣)] ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة.

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الوسواس فيها؛ ومعنى الآية عندهم:

---

(١) [سورة ص: الآيات ٨٢-٨٣]

(٢) [سورة النحل: الآيات ٩٨-١٠٠].

(٣) [سورة النحل: الآية ٩٨].

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[1] أي: إذا أردتَ القراءة؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾[2]

أي: إذا أردتم القيام.

والدليلُ على ذلك: الأحاديثُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعن أبي سعيد الخدري؛ قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبَّر، قال: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**»، ثم يقول «**لا إله إلا الله ثلاثـًا**» ثم يقول «**أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه**»[3].

وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها هاهنا، وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال. والله أعلم[4].

---

(١) [سورة النحل: الآية ٩٨].

(٢) [سورة المائدة: آية ٦].

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠) وأخرجه كذلك أصحاب السُنن الأربعة.

(٤) ذكر المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض تلك الأحاديث، وأشهرها ما في الصحيحين =

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارةٌ للفم ممَّا كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطييبٌ له لتلاوة كلام الله، وهي استعانةٌ بالله واعترافٌ له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المُبِين الباطن الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يَقْبل مصانعة، ولا يُدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان، كما دلَّت على ذلك آياتٌ من القرآن في ثلاثٍ من المثاني[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٥﴾[2].

= من حديث سليمان بن صُرَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كُنْتُ جالِسًا مَعَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورجُلان يستبَّانِ وأَحدُهُمَا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ وانْتفَخَتْ أوداَجهُ، فَقَالَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنِّي لأعلَمُ كَلِمةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عنْهُ مَا يجِدُ، لوْ قَالَ: أَعْوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجيم ذَهَبَ منْهُ مَا يجد) فقَالُوا لَهُ: إِنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تعوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ». متفقٌ عَليهِ.

(١) ذكَرَ المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ الآيات الثلاث في أوَّل هذا الفصل: الكلام على تفسير الاستعاذة.

(٢) [سورة الإسراء: آية ٦٥].

وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري يوم بدر، فَمَنْ قَتَلَهُ العدوُّ الظاهري البشري كان شهيداً، ومن قتله العدوُّ الباطني كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطني كان مفتونـًا أو موزوراً، ولمَّا كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه، استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

❊❊❊

فصل

والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى، والالتصاق بجنابه، من شر كل ذي شر.

والعياذ يكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير، كما قال المتنبي:

يـا مـن ألـوذُ بـه فيمـا أؤمِّلُـهُ
ومـن أعـوذ بـه ممَّـن أحـاذُرُهُ
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسرُهُ
ولا يهيضون عظمًا أنت جابرُهُ

ومعنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرَّني في ديني أو دنياي، أو يصدَّني عن فِعْل ما أُمِرتُ به، أو يحثَّني على فِعْل ما نُهِيتُ

عنه، فإنَّ الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليردَّه طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن؛ لأنه لا يقبل رشوةً، ولا يؤثِّر فيه جميلٌ؛ لأنه شرِّيرٌ بالطبع، ولا يكفُّه عنك إلا الذي خلقه.

والشيطانُ في لغة العرب مشتقٌّ من شَطَنَ، إذا بَعُدَ؛ فهو بعيدٌ بطبعه عن طباع البشر، وبعيدٌ بفِسْقه عن كل خير.

وقيل: مشتقٌّ من شاط؛ لأنه مخلوقٌ من نار؛ ومنهم من يقول: كلاهما صحيحٌ في المعنى، ولكنَّ الأول أصح، وعليه يدلُّ كلام العرب؛ قال أُميَّة بن أبي الصَلْت في ذِكْرِ ما أوتي سليمان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

أيُّما شاطنٍ عصاه عكاهُ ثم يُلْقى في السجن والأغلالِ

فقال: أيُّما شاطن، ولم يقل: أيُّما شائط.

وقال النابغة الذبياني:

نأت بسعادَ عنك نوًى شطونُ   فباتت والفؤاد بها رهينُ

يقول: بَعُدَتْ بها طريقٌ بعيدة.

وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان، إذا فَعَلَ فِعْلَ الشياطين، ولو كان من شاط لقالوا: تشيَّط.

فالشيطان مشتقٌ من البُعْد على الصحيح؛ ولهذا يسمَّون كلَّ من تمرَّد من جنيٍّ وإنسيٍّ وحيوان: شيطانًا. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1].

والرجيم: فعيل بمعنى مفعول؛ أي: إنه مرجومٌ مطرودٌ عن الخير كلِّه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) [سورة الأنعام: آية ١١٢].
(٢) [سورة الملك: آية ٥].

وقيل: رجيمٌ بمعنى راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوسواس والربائث[1]. والأول أشهر وأصح.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾.

افتتح بها الصحابةُ كتابَ الله، واتَّفق العلماء على أنها بعضُ آيةٍ من سورة النمل؛ ثم اختلفوا: هل هي آيةٌ مستقلةٌ في أوَّل كلِّ سورة، أو مِنْ أوَّل كلِّ سورة كُتبت في أوَّلها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها إنما كُتبت للفصل لا أنها آية ـ على أقوال للعلماء؛ سَلَفًا وخَلَفًا؛ وذلك مبسوطٌ في غير هذا الموضع.

وأما الجهر بها فمُفرَّعٌ على هذا؛ فمن رأى أنها ليست منها فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية في أولها.

وأما من قال بأنها من أوائل السور، فاختلفوا؛ فذهب

(١) الربائث: جمع ربيثة وهي الخديعة.

الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة؛ وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفًا وخلفًا.

وذهب آخرون إلى أنه لا يَجْهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخُلفاء الأربعة، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة بالكلية لا جهراً ولا سراً.

فهذه (أقوال)[1] الأئمة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ **في هذه المسألة**، وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحَّة صلاة مَنْ جهر بالبسملة ومَنْ أسرَّ، ولله الحمد والمنَّة.

❊❊❊

(١) كلمة «أقوال» إضافةٌ منّي (المُختصِر).

فصلٌ في فضلها

قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم؛ قال: سمعت أبا تميمة يُحِّدث عن رديف النبي ﷺ؛ قال: عثر بالنبي ﷺ حماره؛ فقلت: تَعِسَ الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلتَ: تَعِسَ الشيطان، تعاظم وقال: بقوَّتي صرعتُه، وإذا قلتَ: باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذُباب»[1].

فهذا من تأثير بركة «بسم الله»، ولهذا تُسْتَحَبُّ في أوَّل كلِّ عملٍ وقول؛ فتُسْتحب في أول الخُطبة، وعند دخول الخلاء، وفي أول الوضوء، وعند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة، وهكذا تُسْتحب عند الأكل ومن العلماء من أوجبها، وكذا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٥٩).

تُسْتحب عند الجماع لما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لو أنَّ أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان وجنِّب الشيطانَ ما رزقتنا، فإنه إنْ يُقدَّر بينهما ولدٌ لم يضرَّه الشيطان أبداً»[1].

وقد ذكر الرازي في تفسيره في فضل البسملة أحاديث منها: حديث أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا أتيتَ أهلك فسمِّ الله، فإنه إن وُجِدَ لك ولد، كُتِبَ لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات» وهذا لا أصل له، ولا رأيته في شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها.

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المُتَعَلَّق بالباء في قولك: بسم الله، هل هو اسم أو فعل؟ أنهما متقاربان، وكلٌّ قد ورد به القرآن؛ أما من قدَّره باسم تقديره بسم الله ابتدائي؛ فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا

(١) أخرجه البخاري (١٤١) ومسلم (١٤٣٤).

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾[1].

ومن قدَّره بالفعل أمراً أو خبراً؛ نحو: أبدأ بسم الله، أو ابتدأتُ بسم الله فلقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[2] وكلاهما صحيح؛ وذلك بحسب الفعل الذي قبله إن كان قيامًا أو قعوداً أو أكلاً أو شربًا، أو قراءةً أو وضوءاً أو صلاةً؛ فالمشروعُ ذِكْرُ اسمِ اللهِ في الشروع في ذلك كلِّه؛ تبرُّكًا وتيمُّنًا واستعانةً على الإتمام والتقبُّل. والله أعلم.

﴿ٱللَّهِ﴾.

عَلَمٌ على الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يقال: إنَّه الاسم الأعظم. لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ

(١) [سورة هود: آية ٤١].
(٢)[سورة العلق: آية ١].

ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾[(١)] فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[(٣)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إن الله تسعة وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»[(٤)].

وجاء تعدادها في رواية الترمذي وابن ماجه، وبين الروايتين اختلاف زيادة ونقصان.

---

(١) [سورة الحشر: الآيات ٢٢-٢٤].
(٢) [سورة الأعراف: آية ١٨٠].
(٣) [سورة الإسراء: آية ١١٠].
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾

اسمان مشتقَّان من الرحمة على وجه المبالغة. ورحمن أشدُّ مبالغةٌ من رحيم. وفي كلام ابن جرير ما يُفْهم منه حكاية الاتفاق على هذا.

قال القرطبي: ثم قيل هما بمعنىً واحد؛ كندمان ونديم؛ قاله أبو عبيد.

وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل؛ فإن «فعلان» لا تقع إلا على مبالغة الفعل، نحو قولك: رجل غضبان «للرجل الممتلئ غضبًا». وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول.

قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسمٌ عامٌّ في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾[1].

(١) [سورة الأحزاب: آية ٤٣].

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يُسَمَّ به غيره؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[2]. ولما تجهرم[3] مسيلمة الكذاب، وتسمَّى برحمان اليمامة، كساه الله جلباب الكذب، وشَهَرَه به، فلا يُقال إلا مسيلمة الكذاب، فسار يُضْرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر وأهل المدر وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشدُّ مبالغةً من الرحمان؛ لأنه أُكِّدَ به. والمؤكِّد لا يكون إلا أقوى من المؤكَّد.

والجواب: أن هذا ليس من باب التأكيد، وإنما هو من باب النعت بعد النعت؛ ولا يلزم فيه ما ذكروه.

(١) [سورة الإسراء: آية ١١٠].

(٢) [سورة الزخرف: آية ٤٥].

(٣) لعلَّ معناها: (جاهر بجُرْمه) كما استظهر ذلك الشيخ أحمد شاكر رحمه الله.

وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يُسَمَّ به أحدٌ غيره، ووصفه أولاً بالرحمان الذي مَنَعَ من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1] وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمِّي به، ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة.

وأما الرحيم فإنه تعالى وَصَفَ به غيره حيث قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[2] كما وصف غيره بغير ذلك من أسمائه، في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾[3].

والحاصل: أنَّ مِنْ أسمائه تعالى ما يُسمَّى به غيره، ومنها ما لا يُسمَّى به غيره؛ كاسم: الله، والرحمن، والخالق،

---

(١) [سورة الإسراء: آية ١١٠].

(٢) [سورة التوبة: آية ١٢٨].

(٣) [سورة الإنسان: آية ٢].

والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخصُّ وأعرفُ من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء؛ فلهذا ابتدأ بالأخصِّ فالأخص.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى ردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1].

ولهذا قال كُفَّار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **اكتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾** فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري[2].

وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ

---

(١) [سورة الإسراء: آية ١١٠].

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾[1].

والظاهر أنَّ إنكارهم هذا إنما هو جحودٌ وعنادٌ وتعنُّتٌ في كُفْرهم، فإنه قد وُجِدَ في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾.

قال أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصًا دون سائر ما يُعْبَد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلَّفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذَّاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبَّههم

(١) [سورة الفرقان: آية ٦٠].

عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدِّية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المُقيم، فلربنا الحمد على ذلك كلِّه أولاً وآخراً.

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحمد لله، ثناءٌ أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمرَ عباده أن يُثْنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله.

قال: وقد قيل إن قول القائل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناءٌ عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقوله: (الشكر لله) ثناءٌ عليه بنعمه وأياديه.

ثم شرع في ردِّ ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلاً من الحمد والشكر مكان الآخر.

وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على

المحمود بصفاته اللازمة والمتعدِّية، والشكر لا يكون إلا على المتعدِّية، ويكون بالجنان واللسان والأركان؛ كما قال الشاعر:

أفادتكـم النَّعمَـاءُ مِنِّـي ثلاثـةً
يَدِي ولساني والضمير المُحَجَّبا

ولكنهم اختلفوا أَيُّهما أعم: الحمد أو الشكر؟ على قولين: والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدتُه لفروسيته، وحمدتُه لكرمه، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعمُّ من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية كما تقدم. وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرتُه لفروسيته؛ وتقول: شكرتُه على كرمه وإحسانه إليَّ.

هذا حاصل ما حرَّره بعض المتأخرين. والله أعلم.

وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الحمد: نقيض الذم، تقول: حمدتُ الرجل أحمده حمداً ومحمدة، فهو حميد، ومحمود. والحمد أعم من الشكر.

وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، يقال: شكرته وشكرت له، وباللام أفصح.

وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللميت وللجماد أيضًا، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضًا؛ فهو أعم.

وقد حكى القرطبي عن طائفةٍ أنهم قالوا: قول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ أفضل من قوله: «لا إله إلا الله» لاشتمال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ على التوحيد مع الحمد.

وقال آخرون: «لا إله إلا الله» أفضل؛ لأنها الفَصْل بين الإيمان والكفر، وعليها يُقاتل الناس حتى يقولوا: «لا إله إلا الله» كما ثبت في الحديث المتفق عليه.

والربّ: هو المالك المتصرف. ويُطْلَق في اللغة على السيّد، وعلى المتصرف للإصلاح؛ وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى، ولا يُسْتعمل الربّ لغير الله، بل بالإضافة؛ تقول: ربُّ الدار وربُّ كذا. وأما الربُّ فلا يقال إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم.

والعالَمين: جمعُ عالَم، وهو كلُّ موجودٍ سوى الله عَزَّوَجَلَّ.

والعالَم: جمعٌ لا واحد له من لفظه. والعوالم أصناف المخلوقات في السماوات وفي البَرِّ والبحر، وكلُّ قَرْنٍ منها وجيلٍ يُسَمَّى عالَمـًا أيضـًا.

قال الزجَّاج: العالَمُ كلُّ ما خلق الله في الدنيا والآخرة.

قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنه شاملٌ لكل العالمين؛ كقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

والعالَم: مُشْتقٌّ من العَلَامة.

قلت: لأنه علمٌ دالٌّ على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته؛ كما قال ابن المُعْتز:

فيا عجبًا كيف يُعْصى الإلـ ... ـه أم كيف يجْحده الجاحدُ

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحدُ

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ تقدَّم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن الإعادة.

قال القرطبي: إنما وَصَفَ نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ليكون من باب قَرْنِ الترغيب

(١) [سورة الشعراء: الآيات ٢٣-٢٤]

بعد الترهيب؛ كما قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝١٦٥﴾[2] قال: فالربُّ فيه ترهيب، والرحمنُ الرحيمُ ترغيب.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»[3].

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

قرأ بعض القُرَّاء: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» وقرأ آخرون {مَالِكِ} وكلاهما صحيح متواتر في السبع، وقد رجَّح

(١) [سورة الحجر: الآيات ٤٩-٥٠]

(٢) [سورة الأنعام: آية ١٦٥].

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٥٥).

كلاً من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة. ورجَّح الزمخشري «مَلِك» لأنها قراءة أهل الحرمين؛ ولقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾[1] وقوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾[2].

ومالك وملِك مأخوذ من المُلْك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾[3] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾[4] وقال: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾[5] وقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾[6].

(١) [سورة غافر: آية ١٦].
(٢) [سورة الأنعام: آية ٧٣].
(٣) [سورة مريم: آية ٤٠].
(٤) [سورة الناس: الآية ١-٢].
(٥) [سورة الأنعام: آية ٧٣].
(٦) [سورة الفرقان: آية ٢٦].

وتخصيص المُلْك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه؛ لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عامٌّ في الدنيا والآخرة، وإنما أُضيف إلى يوم الدين؛ لأنه لا يَّدعى أحدٌ هنالك شيئًا، ولا يتكلم أحدٌ إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾[1] وقال: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾[2] وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥﴾[3].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَقْبِض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[4].

(١) [سورة النبأ: آية ٣٨].
(٢) [سورة طه: آية ١٠٨].
(٣) [سورة هود: آية ١٠٥].
(٤) أخرجه البخاري (٤٨١٢) ومسلم (٢٧٨٧).

وفي القرآن العظيم ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾[1].

فأمَّا تسمية غيره في الدنيا بمَلِك فعلى سبيل المجاز؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗا﴾[2] ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾[3] ﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾[4] وفي الصحيحين: «مِثْلُ الملوكِ على الأَسرَّة»[5].

والدِين: الجزاء والحساب، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾[6] وقال: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣﴾[7] أي: مجزيون محاسبون. وفي الحديث: «الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت» أي: حاسب نفسه؛ كما قال عمر

---

(١) [سورة غافر: آية ١٦].
(٢) [سورة البقرة: آية ٢٤٧].
(٣) [سورة الكهف: آية ٧٩].
(٤) [سورة المائدة: آية ٢٠].
(٥) أخرجه البخاري (٢٧٨٩) ومسلم (١٩١٢).
(٦) [سورة النور: آية ٢٥].
(٧) [سورة الصافات: آية ٥٣].

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزِنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهَّبوا للعرْض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾[1].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

العبادة في اللغة من الذِلَّة، يقال: طريق مُعبَّد، وبعير مُعبَّد؛ أي: مُذلَّل.

وفي الشرع عبارةٌ عمّا يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف.

وقدم المفعول، وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ وكرَّره للاهتمام والحصر؛ أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك؛ وهذا هو كمال الطاعة.

والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين.

---

(١) [سورة الحاقة: آية ١٨].

وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ فالأول تبرُّؤٌ من الشرك، والثاني تبرُّؤٌ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝١٢٣﴾[1] ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾[2] ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾[3] وكذلك هذه الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

وقد تحوَّلَ الكلامُ من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، لأن العبد لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

(١) [سورة هود: آية ١٢٣].
(٢) [سورة الملك: آية ٢٩].
(٣) [سورة المزمل: آية ٩].

وفي هذا دليل على أن أول السورة خبرٌ من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده بأن يُثْنوا عليه بذلك؛ ولهذا لا تصحُّ صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[١].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل؛ إذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال الله: مجَّدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال هذا

(١) سبق تخريجه ص٣.

بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1].

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ يعني: إيَّاك نوحِّد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ على طاعتك، وعلى أمورنا كلها.

وقال قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ يأمركم أن تُخْلِصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أموركم.

وإنما قدم ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

وقد سمَّى اللهُ رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بعبده في أشرف مقاماته؛

(١) سبق تخريجه ص١٤.

فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[1] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[2] ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[3] فسمَّاه: عبداً عند إنزاله عليه، وقيامه في الدعوة، وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة عندما يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾[4].

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾

لمَّا تقدَّم الثناءُ على المسؤول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ناسبَ أن يُعْقِبَ بالسؤال؛ كما قال: «فنصفها لي؛ ونصفها لعبدي؛ ولعبدي ما سأل» وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله، ثم

(١) [سورة الكهف: آية ١].

(٢) [سورة الجن: آية ١٩].

(٣) [سورة الإسراء: آية ١].

(٤) [سورة الحجر: آية ٩٩].

يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ لأنه أنجح للحاجة؛ وأنجع للإجابة؛ ولهذا أرشد الله إليه؛ لأنه الأكمل؛ وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾[1] وقد يتقدَّمه مع ذلك وصف المسؤول؛ كقول ذي النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾[2] وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول؛ كقول الشاعر:

أأذكر حاجتي أمْ قد كفاني ... حياؤكَ إنَّ شميتك الحياءُ

إذا أثنى عليك المرءُ يومًا ... كفاه من تعرُّضه الثناءُ

والهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تتعدى الهداية بنفسها، كما هنا: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ فتضمَّن

(١) [سورة القصص: آية ٢٤].

(٢) [سورة الأنبياء: آية ٨٧].

معنى ألهِمنا أو وفِّقنا، أو ارزقنا أو أعطِنا: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[1] أي: بيَّنا له الخير والشر. وقد تُعدَّى بإلى؛ كقوله تعالى: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾[2] ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾[3] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[4] وقد تُعَدَّى باللام؛ كقول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾[5] أي: وفَّقنا لهذا، وجعلنا له أهلا.

وأما الصراط المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعتْ الأُمَّة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه؛ وكذلك في لغة جميع العرب؛ فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفي:

---

(١) [سورة البلد: آية ١٠].
(٢) [سورة النحل: آية ١٢١].
(٣) [سورة الصافات: آية ٢٣].
(٤) [سورة الشورى: آية ٥٢].
(٥) [سورة الأعراف: آية ٤٣].

أميــرُ المؤمنيــن علــى صــراطٍ
إذا اعـــوجَّ الـــمــواردُ مستقيمُ

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحْصَر.

قال: ثم تستعير العربُ الصراطَ فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامة أو اعوجاج، فتصفُ المستقيم باستقامته، والمعوجَّ باعوجاجه.

ثم اختلفت عبارات المُفسِّرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فقيل إنه كتاب الله، وقيل: هو الإسلام، وقيل هو الحق، وهذا أشمل.

وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإنَّ من اتَّبع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واقتدى باللذين من بعده: أبي بكر، وعمر - فقد اتَّبع الحق؛ ومن اتَّبع الحق فقد اتَّبع الإسلام،

ومن اتَّبع الإسلام فقد اتَّبع القرآن؛ وهو كتاب الله، وحبله المتين، وصراطه المستقيم؛ فكلها صحيحة يصدِّق بعضها بعضًا، ولله الحمد.

ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي أعني: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ أن يكون معنيًّا به: وفِّقنا للثبات على ما ارتضيتَه، ووفَّقتَ له من أنعمتَ عليه من عبادك من قول وعمل؛ وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وُفِّق لما وُفِّق له مَنْ أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وُفِّق للإسلام، وتصديق الرُسُل، والتمسُّك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتِّباع منهاج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكلِّ عبدٍ صالح؛ وكل ذلك من الصراط المستقيم.

فإن قيل: فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متَّصف بذلك؟ فهل هذا من تحصيل الحاصل؟

فالجواب: أنْ لا، ولولا احتياج العبد ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك، فإن العبدَ مفتقرٌ في كلِّ ساعةٍ وحالةٍ إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصُّره وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبدَ لا يملك لنفسه نفعـًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله؛ فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يُمِدَّه بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفَّقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنَّه تعالى قد تكفَّل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المُفتقِر إليه آناء الليل وأطراف النهار.

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن

قَبۡلُ﴾[1] فأمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل؛ لأنَّ المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المُعِيْنة على ذلك. والله أعلم.

وقد قال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾[2] وقد كان الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سِرّاً.

فمعنى قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ استمرَّ بنا عليه، ولا تعدِل بنا إلى غيره، ولا تُضِلَّنا عنه.

وقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ مُفَسِّرٌ للصراط المستقيم، وهو بَدَلٌ منه عند النُحَاة. ويجوز أن يكون عَطْفَ بيان، والله أعلم.

(١) [سورة النساء: آية ١٣٦].
(٢) [سورة آل عمران: آية ٨].

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في «سورة النساء» حيث قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠﴾[1].

والمعنى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ممن تقدم وَصْفهم ونَعْتهم؛ وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم؛ وهم الذين فسدت إراداتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين؛ وهم الذين فقدوا العلم؛ فهم هائمون في الضلالة، لا يهتدون إلى الحق.

---

(١) [سورة النساء: الآيات ٦٩-٧٠].

فطريقةُ أهل الإيمان مشتملةٌ على العلم بالحق، والعمل به، واليهود فَقَدوا العمل، والنصارى فَقَدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى؛ لأن من عَلِمَ وتَرَكَ استحقَّ الغضب بخلاف من لم يعلم؛ والنصارى لما كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا. وكلٌّ من اليهود والنصارى ضالٌّ مغضوبٌ عليه، لكنَّ أخصَّ أوصاف اليهود الغضب، كما قال تعالى عنهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾[1] وأخصُّ أوصاف النصارى الضلال، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾[2].

وبهذا جاءت الأحاديث والآثار؛ وذلك واضحٌ بيِّنٌ فيما

---

(١) [سورة المائدة: آية ٦٠].

(٢) [سورة المائدة: آية ٧٧].

روى الإمام أحمد عن عدي بن حاتم؛ قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ فأخذوا عمَّتي وناسًا، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له، فقالت: يا رسول الله؛ ناء الوافد، وانقطع الولد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمُنَّ علي، مَنَّ الله عليك. قال: «من وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم. قال: «الذي فرّ مِنَ الله ورسوله؟» فلما رجع النبي ﷺ ورجلٌ إلى جنبه ترى أنَّه علي، قال سَلِيْه حِمْلانـًا، فسألتْه فأمَرَ لها؛ قال عديّ: فأتتني فقالت: لقد فعلتَ فعلةً ما كان أبوك يفعلها فإنه قد أتاه فلانٌ فأصاب منه، وأتاه فلانٌ فأصاب منه، فأتيتُه فإذا عنده امرأة وصبيان.. وذكر قُرْبهم من النبي ﷺ؛ قال: فعرفتُ أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر؛ فقال: يا عدي، ما أَفَرَّك؟ أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ ما أَفَرَّك؟ أن يقال: الله أكبر، فهل شيءٌ أكبرُ من الله عَزَّوَجَلَّ؟ قال: فأسلمتُ فرأيتُ

وجهه استبشر. وقال: إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى. وذكر الحديث[1].

وقد رُوِيَ حديث عديٍّ هذا من طُرُقٍ، وله ألفاظٌ كثيرةٌ يطول ذكرها.

وقال ابن عباس: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ اليهود ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ النصارى.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافًا.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٧٨).

مسألة:

والصحيح من مذاهب العلماء أنه يُغْتَفَرُ الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء، لقُرْب مخرجيهما؛ وذلك أن الضادَ مخرجُها من أول حافَّة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العُليا؛ ولأن كلاً من الحرفين من الحروف المجهورة، ومن الحروف الرخوة، ومن الحروف المُطبقة؛ فلهذا كله اغتُفِر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يُميِّز ذلك والله أعلم.

وأما حديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد» فلا أصل له، والله أعلم.

❊❊❊

فَصْلٌ

اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات، على حمد الله وتمجيده، والثناء عليه بِذِكْر أسمائه الحُسْنى المستلزمة لصفاته العلى وعلى ذِكْر المعاد، وهو يوم الدين؛ وعلى إرشادِه عبيدَه إلى سؤاله والتضرُّع إليه، والتبرِّئ من حَوْلهم وقوَّتهم، وإلى إخلاص العبادة له، وتوحيده بالألوهية تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه، حتى يُفْضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسِّي يوم القيامة المُفْضِي بهم إلى جنَّات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل؛ لئلا يُحْشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم، والضالون.

فَصْلٌ

يُسْتحبُّ لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: «آمين» ومعناه: اللهمَّ استجب.

والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، عن وائل بن حُجْر قال: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقال: آمين، مَدَّ بها صوته. قال الترمذي: هذا حديث حسن[1].

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا تلا ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول. رواه أبو داود[2] وابن ماجه وزاد فيه: «فيرتج بها المسجد» - والدارقطني، وقال: «هذا إسناد حسن».

(١) سنن الترمذي (٢٤٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٩٣٤).

قال أصحابنا وغيرهم: يُستحبُّ ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكَّد في حق المُصلِّي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفي جميع الأحوال؛ لما جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا؛ فإنه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»[1].

ولمسلم أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين والملائكة في السماء آمين، فوافقتْ إحداهما الأخرى غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»[2] قيل: بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان. وقيل: في الإجابة. وقيل: في صفة الإخلاص.

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً: «إذا قال

(١) أخرجه البخاري (٧٨٠) ومسلم (٤١٠).
(٢) أخرجه مسلم (٤١٠).

-يعني الإمام- ولا الضالين فقولوا: آمين يُجِبْكُمْ الله»[1].

قال الجوهري: معنى آمين: كذلك فليكن.

وقال الترمذي: معناه: لا تخيِّب رجاءنا.

وقال الأكثرون: معناه: اللّهمَّ استجب لنا.

وعن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعطيتُ آمين في الصلاة، وعند الدعاء، لم يُعْطَ أحدٌ قبلي إلا أن يكون موسى؛ كان موسى يدعو وهارون يؤمِّن، فاختموا الدعاء بآمين؛ فإنَّ الله يستجيبه لكم».

قلت: ومن هنا نَزَعَ بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ

(١) أخرجه مسلم (٤٠٤).

ﭐلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾[١] فذكر الدعاء عن موسى وحده، ومن سياق الكلام ما يدلُّ على أن هارون أمَّن، فنُزِّلَ منزلة من دعا؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ فدلَّ ذلك على أنَّ مَنْ أمَّنَ على دعاءٍ فكأنَّما قاله.

تمَّ المُختصَر من تفسير الإمام ابن كثير لسورة الفاتحة

والحَمْدُ لله ربِّ العالمين

❊❊❊



(١) [سورة يونس: آية ٨٩].